ألفاز النفس الإنسانية

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾

[الشمس : ٧ – ١٠]

obeikandl.com

obeikandl.com

ألغاز النفس الإنسانية

قلنا إن النفس الإنسانية أكثر الأمور لغزًا.. الجسم الإنسانى آية من آيات الله فى الإعجاز..بما فيه من أعضاء تعمل بتناسق عجيب، ويحركها «مايسترو» وهو المخ.. ومع الأشواط التى قطعها العلماء فى دراسة هذا الجهاز العظيم فإن كثيرًا من الألغاز تحيط بفهمنا عنه!

وما يُقال عن الجسم يُقال عن الروح التى تبث فيه الحركة والحياة. ويصبح الإنسان بشقيه المادى والروحى لغز الألغاز!

لماذا نرى بعضًا منا خيّرًا وعضوا عاملا فى الجماعة يعمل لنفسه، ويعمل فى الوقت نفسه لصالح الآخرين؟ ولماذا نرى البعض الآخر يرتكب الجرائم، ولا يرتدع بالعقوبة،ويكون الشر مجسدًا فى صورة إنسان؟!

ثم كيف ينتهى هذا الجسد إلى التراب، ليعود إلى التراب الذى خلق منه؟

إذا ذُكرَ الإنسان ذُكرت القوة والضعف.. الهدى والضلال.. الخير والشر.. السمو والانحطاط.. كل المتناقضات موجودة فى هذا الإنسان اللغز!

ومن هنا لم يكن غريبًا أن يردد الناس مع فيلسوف المعرة أبى العلاء قوله:

أتزعم أنك جـرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولنقف قليلا من شيخ الفلاسفة الدكتور زكى نجيب محمود عندما يتحدث عن إمكانيات هذا الإنسان الذى يزعم أنه مجرد هباءة عابرة، بينما له من الإمكانيات ما يجعله يعرف قيمة نفسه. إنه يقول:

«وفى إحدى لحظات تمجيده للإنسان، قال المعرى متجهًا بقوله إلى الإنسان، صائغًا كلماته فى نبرة العاتب:

أتزعم عن نفسك وعن الناس معك، أنك فى هذا الكون العظيم هباءة صغيرة أو أقل من الهباءة شأنًا! فى حين أنك إذا ما وزنت قدرك بميزان صحيح، وجدت ذلك الكون العظيم الذى قرنت نفسك إلى أطرافه المترامية، فرأيت فيها صغرًا وضآلة، أقول إنك إذا ما أحسنت الميزان لوجدت الكون بكل عظمته إنما هو جزء منك مُنْطَوٍ فيك.

ويعقب على البيت الشهير لأبى العلاء بقوله:

«وما أحوج الثقافة العربية فى زماننا هذا إلى ألف ألف بوق من أضخم مكبرات الصوت؛ ليقرع الأسماع بهذا السؤال المهذب العاتب؛ لأن زماننا هذا قد نكب فى ثقافته بنكبات، كان أنكبها أنْ توافَرَ عليها نفر من أبنائها، يمسون مع الناس ويصبحون فى

إيهامهم بأن الإنسان فوق هذه الأرض صغير تافه عاجز لا عزم له ولا إرادة!! فإذا شذ منا واحد، فانطلق مشاركًا فى قصد الأسرار الكونية بالبحوث العلمية، قالوا له: مكانك! فالعلم لله وحده جل وعلا. وإذا تحركت فيه العزيمة لينشئ ويبنى، صرخوا فى وجهه قائلين: الزم حدك يا ابن آدم، فالإرادة فى كل ذلك لله وحده، سبحانه وتعالى. وبقول من هنا يتبعه قول.. وبصرخة من هناك تتلوها صرخة، استطاع هؤلاء السادة أن يشيعوا مناخًا كثيف الضباب، يكاد يعمى بصر السائر على رؤية قدميه».

ويحلل فيلسوفنا موقف الناس من العقل الإنسانى، وعدم فهمهم أنه لا تناقض بين حرية الإرادة عند الإنسان أو بين علم الله، فيقول:

«وكأن ثمة تناقضًا أن يريد ربنا -جلت قدرته- أن تكون للإنسان إرادته، حتى يقام ميزان العدل لحسابه على ما قدمت يداه من أفعال، يوم أن يكون حساب، وكأن هنالك منطقًا يمنع أن يكون لله العليم علم سابق بقدرة الإنسان على أن يعلم. ونجح السادة -إلى حد ملحوظ- فى أن يصغر الفرد منا أمام نفسه، فقعد متربعًا على الأرض، لا حول له فى تسيير سفائن العالم، منتظرًا حتى يتولى قيادتها سوانا، فمن لنا بمن يعيد فينا صيحة أبى العلاء المريرة فى عتابها اللائم:

أتزعم أنك جـرم صـغير وفيك انطوى العالم الأكبر؟».

فالإنسان له ملكات بلا حدود.

والإنسان له قدرات بلا حدود.

والعقل الإنسانى معجزة بكل المقاييس.

والروح التى تحرك هذا الجسد الهامد، فتدب فيه الحياة والحركة والنمو، معجزة المعجزات. ومن هنا كان على المرء أن يتساءل فى كل العصور منذ عرف التاريخ إلى اليوم: هل يمكن أن يذوب الإنسان ويصبح عدمًا؟ كل الأديان ترى أن الموت ليس هو النهاية، وأن هناك العالم الآخر.. عالم الخلود.

والملحدون تخيلوا أنه لا حياة بعد الحياة، فكيف يمكن للجسد الذى تحول إلى ذرات من رماد أن يعود مرة أخرى، فقالوا: وما يهلكنا إلا الدهر!

ويورد الرواة أن أُبَىَّ بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم.. وقد بذره فى الهواء، وقال للرسول: يامحمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال له الرسول عليه الصلاة والسلام:

«نعم.. يميتك الله -تعالى- ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار».

ثم نزلت الآيات من سورة يس:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٨٠].

ويقول الإمام ابن كثير: سواء نزلت هذه الآية فى أُبى بن خلف، أو العاص بن وائل أو فيهما، فهى عامة فى كل من أنكر البعث.

❀ ❀ ❀

والتاريخ يقص علينا كيف وقف الرسول ﷺ بعد دفن مشركى بدر فى قليب، وخاطبهم قائلا:

«ياأهل القليب، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم. كذبتمونى وصدقنى الناس.. وأخرجتمونى وآوانى الناس.. وقاتلتمونى ونصرنى الناس.

هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا».

فقال له المسلمون: يا رسول الله، أتنادى قومًا جيفوا؟

فقال لهم عليه الصلاة والسلام:

«لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق».

الدين إذن حسم مشكلة البعث والخلود.

ولكن الإنسان كان يتوق دائمًا وهو قلق على مصيره إلى معرفة مصيره بعد الموت. فنرى الناس يقيمون جمعيات لتحضير الأرواح! وينشئون جمعيات علمية لدراسة هذه الناحية. وينضم إلى هذه الجمعيات علماء كبار فى مختلف التخصصات العلمية، وينضم إليهم علماء النفس والباراسيكولوچى.

وقارىء هذه الدراسات يرى كثيرًا من العجائب التى يرويها الذين يحضرون هذه الجمعيات التى تقول إنها تقوم بتحضير أرواح مَنْ غادروا دنيانا، كما يتحدثون عن بعض الأرواح التى تجسدت، ورأوها رأى العين أو الحديث عن طريق الوسيط!

ويبرزون حالات «الطرح الروحى» عندما يُصاب إنسان فى حادثة أو ينتابه مرض، ينتقل على أثره إلى المستشفى، وكيف أن المريض أو المصاب يرى نفسه.. وكأنه قد انخلع من جسمه ورآه بالتفصيل وكأنه خارج عنه.. ومنهم من يرى كيف أجريت له الجراحة بأدق تفاصيلها، وما كان يجرى أثناء هذه الجراحة، أو ما كان يجرى فى قاعة المستشفى عندما كان يخضع لتأثير المخدر.

- هؤلاء يرون أن هناك الجسم العضوى.
- وهناك الجسم الكوكبى.. الذى تحركه الروح.
- وأن هناك خيطًا أثيريا يربط بينهما!

فنقرأ مثلا للدكتور روءف عبيد فى كتابه «خواطر الخروج من الجسد» أدلتها ـ دلالتها عن الجسد الأثيرى أنه ليس محض افتراض، بل إن جميع التحقيقات الوصفية -وبخاصة فى تجارب التجسدات الكلية الجزئية وظواهر الخروج من الجسد- تضافرت فى إثبات وجوده لدى كل كائن حى، ولقد وصلت معادلات الرياضة إلى إثبات وجوده لدى كل جسم خاضع للحواس الإنسانية. ولذا ينبغى التعرض له فى هذا البحث تعرضًا كفيلا بدفع جميع الشبهات المحتملة.

ويقول أيضًا:

وهذا الجسد الأثيرى هو موطن الشعور واللاشعور، وهو المقبول لظواهر التجسد الحاسمة الدقيقة التى عرضت لها فى الجزء الأول من مؤلفى «الإنسان روح لا جسد» والتى قام بتحقيقها علماء يُعتبَرون فى ذروة المقدرة على التحقيق أو على التأصل العلمى الصحيح. كما هو التعليل المقبول لظواهر «الخروج من الجسد المادى». وقد ثبت صحة بعضها تمامًا، وبالتالى لما قد يصاحب بعضها من مشاهد ورؤى متنوعة ينبغى أن تميز تمامًا لمن شاهد الأحلام العادية وهو يصور لنا قدرة الجسد الأثيرى على الخروج من الجسد العضوى والعودة إليه دون أن يصيب الجسد المادى أى أذى. كما أنه يوضح أن هذا الجسد الأثيرى له القدرة على الإحساس بدون الاستعانة بأدوات الإحساس المادية التى يتركها وراءه عند الخروج من الجسد الفيزيقى، وأن هذا الجسد له القدرة على اختراق الحواجز المادية المحيطة به، والسياحة فى مناطق متنوعة من عالمى المادة والأثير، والاتصال بكائنات مختلفة من عالمى المادة والأثير. ثم يصل إلى هذه النتيجة البالغة الأهمية.

وبالنظر لاستقلال هذا الجسد عن مقابله الفيزيقى فيبقى الإقرار له بأنه المركبة المحتملة للخلود، وموطن اللاشعور على المستوى المادى، والشعور على المستوى فوق المادى، ومن ثم فإن الموت يصبح خروجًا أبديا من الجسد الفيزيقى؛ للعيش فى مستوى آخر من مستويات الوجود غير المادية. وبهذا تنتهى رهبة الموت والنظر

إليه باعتباره فناء للعقل أو رقادًا فى ظلمة رهبته.. وكل ما يحدث هو أن الشخص تطوَّرَ. أما الروح صاحبة الشخصية وحاملة العقل، فهى إلى الخلود محتوم، ولا خيار لأحد فيه، ولا هروب لأحد منه.

وكأمثلة من الطرح الروحى الذى أورده المؤلف فى كتابه المثير، نأخذ حالة وبطلها هو الروائى الشهير أرنست همنجواى الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب.. يقول المؤلف: «عندما كان همنجواى فى التاسعة عشرة من عمره، وكان يعمل فى القوات المسلحة فى إيطاليا وفى ٨ يوليو سنة ١٩١٨ كان موجودًا فى خندق بقرب قرية فوسالتا، وكان يقوم بتوزيع حلوى على الجنود الإيطاليين عندما سقطت قذيفة عشوائية إلى جواره، فجرح همنجواى فى ساقه جرحًا غائرًا، وقال فيما بعد لصديقه چى هيكوك الذى كان يعمل مراسلاً أوربيا لإحدى الصحف الأمريكية:

لقد شعرت أن روحى -أو ما أشبه- خرجت رأسًا من جسدى، كما لو كنت تنتزع منديلاً حريريا من جيوبك، ثم حلَّقَتْ حول المكان، وبعدئذٍ عادت ودلفت ثانية (إلى جسمى) ولم أر شيئًا بعدئذٍ. أى لم تتكرر هذه الحادثة.

وقد أثبت همنجواى هذه الحادثة فيما بعد فى الفصل التاسع من روايته «وداعًا أيها السلاح» التى كتبها بعد عشر سنين من اختباره هذا (أى فى سنة ١٩٢٨).

وهذه حالة مألوفة تكررت لأشخاص آخرين، وتمثل الطرح الروحى التلقائى الذى يحدث فى حالة الألم والخوف والخطر الشديدة ولا يشترط فى صاحبها أن يكون وسيطًا روحيًا موهوبًا، سواء أكان هاويًا أم محترافًا».

وما أكثر ما نقرأ من رغائب فى الكتب الروحانية والمجلات التى تخصَّصَتْ فى مثل هذه الدراسات فى الخارج.. نقرأ كل ما يثير الانبهار، وما يزيد الأمور غموضًا حول طبيعة الإنسان ومصيره. وحديثهم عن الأشباح والقصص العجيبة التى يروونها عنها تفوق ما كنا نسمعه من جدَّاتنا وأحاديثهن عن هذه العوالم العجيبة ونحن فى سننا الصغيرة التى كنا نسمعها ونرتعد. وفى نفس الوقت، يهزنا معرفة المجهول ومحاولة الكشف عن ألغازه.

ويروى لنا مثلا الأستاذ فؤاد شاكر فى كتابه «الأشباح والأرواح» كثيرًا من هذه القصص التى شاعت فى الغرب ونختار مثلاً هذه القصة:

شاب اسمه چيرى بالوس.. دُعِىَ عام ١٩٤٧ إلى حفل راقص كبير، عزفت فيه موسيقى موتسارت. وفى الحفل التقى چيرى بفتاة شقراء على جانب كبير من الجاذبية والجمال، دعاها لترقص معه مرة تلو المرة. وفى النهاية عرض عليها أن يصحبها فى سيارته إلى بيتها، فوافقت وفى الطريق كانت تشير إلى الاتجاه الذى تقصده. وعند مكان معين طلبت منه أن يقف بالسيارة إلى جانب الطريق، ففعل. ثم نزلا من السيارة، وجلسا على سور صغير حجرى عند المنعطف. وبعد برهة قالت له:

- يجب أن أعبر الطريق من هنا. ولن تتبعنى!

لم يفهم چيرى ماذا تعنى؛ لأنه لا يوجد على الجانب الآخر سوى مدافن اليفث الشهيرة، وبسرعة قفزت الفتاة، ثم جرت تعبر الطريق فى اتجاه بوابة المدافن، واختفت فجأة قبل أن تصل إليها!! هنا فقط أدرك چيرى لماذا كان ملمس الفتاة التى راقصها باردًا كالثلج!

وهو يذكر أن المرة الثانية التى شعر فيها قبل هذه بالبرودة الشديدة للأجسام، كانت عندما عُيِّنَ فيما بعد فى وظيفة إضافية لدى متعهد أعمال الجنائز، فيقول:

تذكرت أننى كنت ألمس ليلتها لمسة الموت.. لمسة الجثمان الذى فارقته الروح!

ويحكى الكاتب نفسه صاحب كتاب «الأشباح والأرواح» عن التنبوءات المسبقة التى رواها مسئولون كبار.

الرئيس الأمريكى إبراهام لنكولن رأى حلمًا كأنه يمشى فى البيت الأبيض (مقر الرئاسة) وإذا بنعش ملفوف بالعلم!

فسأل: من هذا؟

فقيل له: الرئيس!

ولم تمض أيام قلائل حتى وقع حادث اغتيال الرئيس فى مسرح فورد بواشنطون!

ونستون تشرشل شاع عنه كثيرًا أنه كان يتصرف بدافع من الرؤى والإدراك المسبق! ذات مرة صرخ فى هيئة مطبخه: أن

يبتعدوا سريعًا. وكان ذلك قبل دقائق قليلة من إلقاء قنبلة! وفى مرة أخرى، أصر وهو يركب سيارته أن يدخل من الجانب غير المعتاد أن يستعمله وبهذا التصرف أنقذ نفسه وسيارته من المرور فوق قنبلة موقوتة!

أدولف هتلر، بناء على رؤية رآها فى نومه، وأنه يُدفَن أنقذ نفسه من الهلاك حين كان فى ميدان القتال فى الحرب العالمية الأولى، بينما كان فى خندق مع رفاقه، إذ به يقفز فجأة متسلقًا. وبعد ثوان تنفجر قنبلة فى الخندق، أحاطت بكل الذين كانوا معه وتقتلهم جميعًا فى الحال.

وما أكثر القصص التى تروى فى الشرق والغرب.. فى العالم الأول وفى العالم الثالث حول القوى الخارقة، وعجائب النفس الإنسانية. وهذ القصص يمتزج فيها الواقع بالخيال.. الحقيقة بالأسطورة.. الجد بالهزل.. ولكن الشىء المؤكد أن فى النفس الإنسانية طاقات وأسرارًا.. تبرز فى المواقف الحرجة.. أو فى الأحلام.

وإذا كنا تحدثنا عن جمعيات تحضير الأرواح والدراسات التى تُقام حول «الروح» وما يُقال حول تحضير بعض الأرواح والحديث معها.. فأغلب الظن أن التى حضرت ليست هى الأرواح؛ لأن علمها عند الله.. ولكن ربما يكون ذلك القرين. والقرآن الكريم والسنة المطهرة، قد تحدثا عن ذلك.. وأن لكل إنسان قرينًا!

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ق: ٢٣].

وقد فسر بعض المفسرين هذا القرين بأنه الشيطان الموكل بالإنسان.. ويوم القيامة يتبرأ من إغوائه للإنسان الذى وُكِّل به.

﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[ق :٢٧].

ويوضح القرآن الكريم فى آية آخرى أن الشيطان ينفى عن نفسه أنه أغوى الإنسان.. وأن الإنسان هو الذى كان قابلا أن يضل طريق الحق.

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم : ٢٢].

فالقرين هو الذين يمكن أن يُحضِّروه فى هذه الجلسات، وليست الروح. والقرين لأنه ملازم للإنسان، فهو يعرف عنه كل الأمور، ومن ثم فعندما يخبر عما مرَّ بالإنسان من أحداث يكون فى حديثه كثير من الحقيقة.. والله أعلم.

فالنفس الإنسانية هى لغز الألغاز. وما عرف عنها مجرد نقطة من بحر زاخر. إنها أشبه بالمحيط.. نعرف بعض أسراره. أما ما يحويه وما يجرى فى داخله.. فعجائب تفوق الخيال.. أو على حد تعبير نيوتن بعد اكتشافه لقانون الجاذبية بأنه كمن يلهو على الشاطىء، واكتشف بعض الأصداف، بينما الأعماق مليئة باللآلئ.

وكما يكشف البركان عن بعض أسراره وهو يقذف بالحمم، كذلك فإن النفس الإنسانية تشى ببعض أسرارها عن طريق الأحلام مثلاً.

والرسول ﷺ يقول:

«لم يبقَ بعد من النبوة إلا المبشرات.

قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟

قال: الرؤية الصالحة.. يراها الرجل المسلم أو تُرَى له».

ويرى بعض مفكرى الإسلام أن الرؤيا من الله، بينما الحلم من الشيطان؛ فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «الرؤيا من الله. والحلم من الشيطان. فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه، فليبصق عن يساره، وليستعذ بالله منه. فلن يضره».

ويروى لنا الشيخ أحمد حسن الباقورى فى كتابه «قطوف من أدب النبوة» رؤيا فتاة إسبانية دوَّنَ الحديث عنها وعن رؤياها الأستاذ المرحوم عبد الله عفيفى بقوله:

«فى أصيل يوم من صيف سنة ١٩١٤ كنت واقفًا فى جمهور الواقفين فى محطة طنطا، أرقب القطار القادم من الإسكندرية؛ لأتخذه إلى القاهرة. لقد كان كلٌّ فى شغل بتلك الدقائق المعدودات يقضيها فى توديع وإشفاق وترقب وانتظار، وحمل متاع وتنسيق آخر، وكنت فى شغل بصديق يجاذبنى حديثًا شائقًا ممتعًا. فى تلك اللحظة، وبين ذلك الجمع المحتشد، راع الناس صياح

وعويل وتهدج واضطراب، ومشادة ومدافعة، ثم أبصروا، فإذا فتاة فى السابعة عشرة من سنها - يقودها إلى موقف القطار شرطى عات شديد وساعٍ من سعاة معتمدى الدول قوى عتيد، ومن خلفها شيخ أوربى جاوز الستين مكتئب مهزول، وهى تدافع الرجلين حولها بيدين لا حول لهما. أقبل القطار ثم وقف، فكاد كل ينسى بذلك الموقف موقفه وما قصد له، ثم أصعدت الفتاة، وصعد معها من حولها، وعجلت أنا وصاحبى، فأخذنا مقاعدنا، حيث أخذوا مقاعدهم، كل ذلك والفتاة على حال من الحزن والكرب لا يجمل معها الصبر ولا يحمد دونها الصمت. سألت الشيخ ما خطبه؟ وما أمر الفتاة؟ فقال وقد أشرقه الدمع، وقطع صوته الأسى: إنى رجل إسبانى وتلك ابنتى. عرض لها منذ حين مالم أعلمه، فصحوت ذات صباح على صوتها تصلى صلاة المرأة المسلمة. ومنذ ذلك اليوم احتجزت ثيابها؛ لتتولى أمر غسلها بنفسها، وأرسلت خمارها الأبيض على صفحتى وجهها ومكشوف صدرها، ثم أخذت تنفق وقتها فى صلاة وصيام، وسجود وهجود، وكانت تدعى (روز) فأبت إلا أن تُسمى (فاطمة).. وما لبثت أن تبعتها أختها الصغرى، فصارت أشبه بها من القطرة بالقطرة، والزهرة بالزهرة.

ففزعت لهول ذلك الأمر. وقصدت أحد أساقفنا، فأخذ يعانى رياضتها، فلم يجد ذلك شيئًا.

وعزت على الرجل خيبته، فكتب إلى معتمد الدولة الإسبانية بأمر الأسرة الخارجة على دينها. وهناك أمر المعتمد حكومة مصر،

فساقت إليه الفتاة كما ترى برغمها ورغم ذويها؛ ليقذف بها بين جوانب دير تستردُّ فيه دينها القديم.

قلت: أو أرضاك أن تُساق ابنتك سوق الآثمات المجرمات على غير إثم ولا جريمة؟! فزفر الرجل زفرة كاد يتصدَّع لها قلبه، وتنكسر ضلوعه، ثم قال:

أما لقد خدعت ودوهمت وغلب أمر الحكومتين أمرى، فماذا عسانى أفعل؟!

وعلى أثر ذلك انثنيت إلى الفتاة وهى تعالج من أهوال الحزن وأثقاله ما تخشع الراسيات دون احتماله.

فقلت: ما بالك يافاطمة؟

وكأنها أنست منى ما لم تأنسه ممن حولها، فأجابتنى بصوت يتعثر من الضنى: لنا جيرة مسلمون أغدو إليهم فأستمع أمر دينهن، حتى إذا أخذنى النوم ذات ليلة رأيت النبى محمداً ﷺ فى هالة من النور يخطف سناها الأبصار يقول وهو يلوح إلىَّ بيده:

- تعالى يا فاطمة. ولو أنك أبصرتها وهى تنطق باسم النبى محمد لرأيت رعدة تتمشى بين أعطافها وأطرافها حتى تنتهى إلى أسنانها فتخالف بينها، وإلى لسانها فتعقله، وإلى وجهها فتحيل لونه. فلم تكد تستتم جملتها، حتى أخذتها رجفة، فهوت على مقعدها كأنها بناء منتفض.. إلى هذا الحد غشى الناس ما غشيهم من الحزن فاندفع إليها رجل يؤذن فى أذنها. فلما انتهى إلى قوله:

أشهد أن محمدًا رسول الله، تنفست الصعداء، وأمعنت فى البكاء وعادتها سيرتها الأولى فلما أفاقت قلت لها:

- مم تخافين وتفزعين؟

قالت: إنه سيؤمر بى إلى دير حيث ينهلون السياط من دمى. ولست من ذلك أخاف. إلا أن أخوف ما أخاف منه يومئذ أن يُحال بين صلاتى ونسكى.

قلت: يا فاطمة.. أو أدلُّك على خير من ذلك؟

قالت: أجل.

قلت: إن حكم الإسلام على القلوب، فما عليك لو أقررت بين يد المعتمد بدينك القديم.. وأودعت الإسلام بين شغاف قلبك؛ حتى لا يفوتك أن تقيمى شعائره حيث تشائين؟

هنالك نظرت إلىَّ نظرة تضاءلت دونها، حتى خفت على نفسى، ثم قالت:

- دون ذلك حز الأعناق وتفصيل المفاصل.. دعنى.. فإننى إن أطعت نفسى عصانى لسانى. وكان ضلالا ما توسلت به أنا وأبوها ومن حولها.. كان ذلك حتى أوفينا إلى القاهرة، فحيل دونها.. لم أعلم بعد ذلك شيئًا من فاطمة؛ لأنى لم أستطع أن أعلم، رحمة الله وبركاته عليك يا فاطمة، فما أنت أولى شهيدات الرأى الحر والإيمان الوثيق».

وبعد أن ينهى الشيخ الباقورى هذه القصة، يطرح رؤيته لما يراه الإنسان فى النوم، فيراه ينشأ عن أحد أمور ثلاثة:

أحدها: ما أشار إليه الحديث النبوى الشريف مما يتصل بمعنى الوحى، ويجرى فى سبيل النبوة للمصطفَيْنَ الأخيار من عباد الله المؤمنين، وفى ذروة هؤلاء السادة أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم أجمعين.

وثانيها: ما ينشأ عن فساد المعدة وسوء الهضم.

وثالثها: ما يكون انعكاسًا لرغائب ومطامح عَجَزَ الإنسان عن الظفر بها فى اليقظة، فيسَّرَ الله له السبل فى المنام، فاستبشر بها، وسعد فى ظلها سعادة ربما خففت من حدة الحرمان، وربما قادته إلى موطن وبال لا خير فيه لمن يؤثر السعى الجاد الكادح على الاستسلام لأحاسن المنى وألاعيب الشيطان. وإلى هذا النوع من الرؤى الفاسدة يشير حديث جابر: أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إنى حلمت أن رأسى قُطِع، فأنا أتبعه، فزجره رسول الله قائلا: «ما تخبر بتلعب الشيطان بك فى المنام».

ويحدثنا الدكتور أحمد الشرباصى فى كتابه «من أدب القرآن» عن النفس فيقول:

فالقرآن يحدثنا عن خمسة أنواع من النفوس.. فهو يحدثنا عن النفس الأمارة بالسوء، والنفس المسولة للشر، والنفس الموسوسة بالإثم، والنفس اللوامة على التقصير، والنفس المطمئنة بالرضى واليقين.

والنفس الأمارة بالسوء هى التى تدعو صاحبها إلى ارتكاب الذنوب والسئيات، وتحرضه على الانحراف والفجور، وتوقع به

إلى مهاوى الضلال والخيال؛ لأن كلمة «أمارة» صيغة مبالغة من الأمر، وفيها يقول التنزيل الحكيم فى سورة يوسف:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣].

ويستعرض رأى الإمام الرازى الذى يقول: «اختلف الحكماء فى أن النفس الأمارة بالسوء ما هى؟ والمحققون قالوا: إن النفس الإنسانية شىء واحد، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلهى، كانت نفسًا مطمئنة. وإذا مالت إلى الشهوة والغضب، كانت أمارة بالسوء. وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة. والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات، والتذت بها، وعشقتها. فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه، فذلك لا يحصل إلا نادرًا فى حق الواحد فالواحد. وذلك الواحد، إنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طوال عمره فى الأوقات النادرة. فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسدانى، وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادرًا، لا جرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء. ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة النطقية، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية».

ويعرض لنا الدكتور الشرباصى أنواع النفوس الخمسة كما ورد ذلك فى القرآن الكريم، وكيف أن شر هذه النفوس كلها هى تلك النفس الأمارة بالسوء الداعية إلى الضلال، المحرضة لصاحبها على

الانحراف والاعتساف، وأن خير هذه النفوس هى النفس المطمئنة الموقنة الثابتة الراضية، وبينهما مراحل ومنازل ودرجات.

ويقول: لقد كان رسول الله ﷺ يضرب القدوة فى الحرص على إصلاح النفس، فيدعو ربه قائلا:

«اللهم اجعل فى نفسى نورًا».

ويستعيذ بالله من انحراف النفس، فيقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا تشبع».

فإذا كان هذا هو شأن رحمة الله للعالمين، فما يكون شأن الواقعين فى الضلال المبين؟

ويختم بحثه بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا صوت القرآن.

وهذا ميدان جهاد لا يحتاج إلى جيش أو طائرات أو دبابات، ولكنه يحتاج إلى همة وعزيمة، ولابد لنا من معركة مع أنفسنا؛ لنصلح للقيام بمعركة مع أعدائنا. ولنتذكر على الدوام قول ربنا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

❋ ❋ ❋

وتزكية النفس تأتى بقوة الإرادة والتوكل على الله والاتجاه إليه وطلب العون منه أن يهديه سواء السبيل.. ويهديه إلى الطريق

الذى يملأ قلبه باليقين والإيمان، فيرى كل شىء بنور الله.. ويعيش حياته وهو يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه، فإنه الله يراه.

وتزكية النفس بالعبادة، وسلوك طريق الشرع، ومعاملة الناس بما أمر به الله.. توصل بالإنسان إلى النفس المطمئنة التى يقول عنها الله جل وعلا:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠].

وتزكية النفس تأتى أيضًا بأن نجعل من الرسول العظيم قدوة وأمامًا، فهو الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّرَ كان مع ذلك يقول:

«كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

ومن أقواله ﷺ وهو يحث الناس على العمل على طاعة الله من أجل الآخرة:

«إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. فإن العبد بين مخافتين: أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل به، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه.

فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

وقد كان الرسول ﷺ يدعو دائمًا إلى تزكية النفوس، وكان يرغب أصحابه فيما عند الله، فقال لهم فيما يروى الإمام البخارى:

«إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الغابر فى أفق السماء من المشرق، أو المغرب لتفاضل ما بينهم.

قالوا: يا رسول الله، منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟

قال: بلى، والذى نفسى بيده.. رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

وما أعظم النبى ﷺ وما أبلغه وهو يصف أنواع النفوس.. إن منها مَنْ يُقْبِل على الله، ومنها ما يسميه الأرض الجدباء التى لا يجدى فيها شىء. يقول خاتم رسل الله:

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قلب الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.

فذلك مثل مَنْ فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

وهذا الحديث رواه الإمام البخارى.

وقد علمنا الرسول ﷺ أن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة وأن الله يجعل من العلماء مَنْ يهدون الناس إلى سواء السبيل، ويعلمونهم كيف يزكون أنفسهم، وأن هؤلاء العلماء أو هؤلاء العارفين بدين الله هم نور هداية للناس.

وعلينا أن نبتعد عن الجهلة والمُدَّعين الذين لا يعرفون عن الإسلام ونور الإسلام شيئًا ومع ذلك يقعدون للفتوى!

يقول أعظم رسل الله:

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقَ عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

❁ ❁ ❁